١٢

كتاب آدم سميث الضائع

لم يؤلف آدم سميث كتابًا عن السياسة. هنالك عدد من الأسباب التي أدت إلى عدم اكتمال الجزء الثالث من ثلاثية سميث للتحسين والتطوير، عمله حول (مبحث القانون). فقد انشغل بتنقيح (نظرية العواطف الأخلاقية). وأصبح مسؤولًا حكوميًّا في اسكتلندا. ثم مات.

لكن أتساءل: هل يوجد سبب آخر؟ كان سميث فيلسوفًا أخلاقيًّا. وربما أدرك في مرحلة ما أن السياسة ليست المكان المناسب للفلسفة والأخلاق. هل حدث ذلك عند كتابة الجزء الخامس من (ثروة الأمم)؟ الهامش القديم الذي كتبه سميث عن نفسه في (نظرية العواطف الأخلاقية) واهتمامه بـ (الحقيقة) لا بـ (الصواب)، لا

يمكن تطبيقه على التفكير في السياسة. فالسياسة تتعلق بالصواب، بل بالخطأ.

تأسست النظم السياسية على مفارقات أعمق من أن تطولها الفلسفة. وأدرك آدم سميث ذلك حين كتب (نظرية العواطف) في خمسينيات القرن الثامن عشر. وألمح إليه في الفصل الأول: (السجن أكثر نفعًا بالتأكيد لعامة الناس من القصر؛ والشخص الذي شيد الأول موجه عمومًا بروح وطنية أكثر استقامة من ذلك الذي بنى الآخر)[١]. لكن لا يقول للطفل حديث الولادة شيئًا مثل: (في يوم ما ستصبح مأمور سجن ليفينورث).

ثمة معضلة تدحض أفضل نيات النظم السياسية وتنقض أنبل مقاصدها. إذ تحمل القيادة السياسية مسؤولية (ترويج رخاء الأمة وتشجيع ازدهارها، عبر ترسيخ الانضباط ومنع كل أنواع الرذيلة والسلوك غير اللائق)، كما كتب سميث[٢]. أما إهمال ذلك (فيعرض الأمة إلى كثير من الاضطرابات الفظيعة والفواحش الشنيعة، في حين أن المغالاة في التطبيق تؤدي إلى تدمير الحرية والأمن والعدالة)[٣].

لا تستجيب السياسة لنظام الحرية الطبيعية الواضح والبسيط. لنتخيل سياسيًّا يقف على المنبر الانتخابي ويقول مثلًا: (افعلوا ما تشاؤون)!!

وفيما يتعلق بالنوع الأكثر نجاحًا من السياسيين، وصف سميث شخصيتهم في قسم أضافه إلى (نظرية العواطف) عام ١٧٩٠:

ليس لديهم سوى القليل من التواضع؛ وكثيرًا ما يكونون مدعين، ومتغطرسين، ووقحين؛ ويبالغون في الإعجاب بأنفسهم، ويغالون في ازدراء الآخرين.. ووقاحتهم المغالية المؤسسة على الإعجاب المتطرف بالذات، تذهل الجمهور.. والنجاح المتكرر والمدهش غالبًا لأكثر الدجالين والمدلسين جهلًا.. يظهر إلى حد كاف مدى سهولة التأثير في الجماهير عبر أكثر الادعاءات غلوًا وتطرفًا وبهتانًا(٤).

لكن - وفي السياسة دومًا (لكن).. حين تُدعم هذه الادعاءات بدرجة عالية من الجدارة الحقيقية والراسخة، وحين تُعرض بالألق البراق الذي يسبغه عليها التظاهر المتباهي، وحين تساندها قوة عظيمة رفيعة المرتبة.. كثيرًا ما يذعن حتى الحصيف صاحب الحكم المنطقي الرزين ويعجب بها(٥).

لكن أشد ما حير سميث وأربكه في السياسة أحجية اختلاط العدل بالظلم حتى في أكثر النظم السياسية منطقية وعقلانية وجدارة. في (ثروة الأمم)، ذكر المتطلبات الضرورية للنظام السياسي الذي يشجع رفاه الناس وسعادتهم:

من النادر أن تزدهر التجارة والتصنيع في أي دولة لا تتمتع بإدارة نظامية للعدالة، حيث لا يشعر الناس

بأنهم آمنون في حيازة أملاكهم، وحيث لا يدعم القانون تنفيذ العقود، وحيث لا تستخدم سلطة الدولة بانتظام - كما مفروض - في فرض سداد الديون[٦].

العدالة ضرورية لحماية الملكية. لكن الملكية غير عادلة بالضرورة (كلما زادت الملكية تفاقم الظلم)[٧]. كتب سميث يقول إن بمقدورنا العيش دون قانون. (حين لا توجد ملكية.. لا تغدو الحكومة المدنية ضرورية كثيراً)[٨]. لكننا سنواجه عندئذ عكس القانون (والملكية) ونقيضه، كما كانت الحال في عهد الإقطاع، أو ماو تسي تونغ. لذلك، يجب إقامة النظم السياسية للحفاظ على ظلم الملكية عبر إدارة العدل.

لم يكن آدم سميث عبثيًّا. ومن الأفضل ترك الانتقادات السياسية إلى جوناثان سويفت(*) أو برنارد مانديفيل(**). في بدايات القرن الثامن عشر، كتب مانديفيل (حكاية النحل الخرافية)، وهي قصيدة وتعليق قال فيهما: (أمتدح نفسي على إظهار أن.. ما ندعوه بالشر، الأخلاقي والطبيعي، في العالم يعد مبدأ عظيمًا يجعلنا كائنات اجتماعية)[٩].

الأسوأ أن تفعل الجماهير شيئًا للصالح العام

••

(*) (١٦٦٧-١٧٤٥): رجل دين، وروائي، وناقد إنكليزي ساخر ولد في أيرلندا. ركز سويفت سخريته المريرة على السياسة والأدب والمجتمع البشري. من أشهر أعماله (رحلات غوليفر) (١٧٢٦). (المترجم).

(**) (١٦٧٠-١٧٣٣): طبيب وناقد إنكليزي ساخر ولد في هولندا. (المترجم).

.. في حين أن الترف

يستخدم مليون فقير،

والفخر المقزز مليونًا آخر،

فإن الحسد والغرور

هما وزيرا الصناعة؛

حماقتهما المحببة؛ التقلب،

في الطعام، والأثاث، واللباس،

تلك النقيصة الغريبة السخيفة، صنعت

العجلة ذاتها التي أدارت التجارة.

..

وهكذا، ترعى الرذيلة الإبداع،

الذي حمل، مع الزمن والصناعة،

الحياة ومباهجها، ووسائل العيش الرغيد،

إلى ذرى سامقة

غدت فيها حياة الفقير اليوم

أفضل من حياة الغني أمس

ولا شيء يمكن إضافته(١٠).

من أعمال مانديفيل الأخرى (دفاع متواضع عن المواخير العامة؛ أو، مقالة عن الدعارة). كان أكثر قدرة حتى من سويفت على إخفاء مشاعره الحقيقية في مساعيه (لإذهال البرجوازيين). وهذا ما سبب إخفاق سميث في فهم روح الدعابة لديه في (نظرية العواطف الأخلاقية): (لكن هناك نظام آخر يبدو أنه يلغي التمييز الفاصل بين الفضيلة والرذيلة، والنزعة نحوه، في هذا الاعتبار، مؤذية ووبيلة: أعني نظام الدكتور مانديفيل)[١١].

ليس النظام الذي (يبدو أنه يلغي التمييز الفاصل بين الفضيلة والرذيلة) سوى علم السياسة في ثماني كلمات.

تتمثل إحدى الإجابات عن المعضلة السياسية في التوسيع الشعبوي لحريات سميث الواضحة والبسيطة. يمكن للمنتقدين المشككين في السياسة في العصر الحديث الاستشهاد على أقل تقدير بخطبة ونستون تشرشل الشهيرة أمام مجلس العموم البريطاني في نوفمبر ١٩٤٧: (الديمقراطية هي أسوأ أنواع الحكم، باستثناء تلك الأشكال الأخرى التي جربت واختبرت). لكن الديمقراطية لم تكن قد جربت واختبرت في زمن سميث. ولم يكن لديه مثل هذا الملاذ ليلجأ إليه.

لا شيء يدهش على الصعيد النظري في حكم الشعب وبالشعب. على سبيل المثال، في إحدى محاضرات سميث حول فلسفة الأخلاق، قال – منظرًا – إن من المستحيل إلغاء الرق في الجمهورية لأن

(الأشخاص الذين يضعون القوانين كلها في ذلك البلد يملكون عبيدًا)[١٢].

معظم المعلومات المتوافرة في القرن الثامن عشر عن الديمقراطية يتجاوز عمرها ألفي سنة. وعلى شاكلة أي مثقف، عرف سميث تاريخ الحروب البيلوبونية. وقصتها طويلة لكن يمكن روايتها باختصار: أثينا الديمقراطية خسرت الحرب.

لم يعد سميث التجارب الأحدث عهدًا للديمقراطية مشجعة. وعاين البروتستانتيين من أتباع كالفن في سويسرا، واستنتج أن (حقهم في انتخاب راعي كنيستهم.. لم ينتج على ما يبدو شيئًا سوى الفوضى والارتباك والتشوش، فضلًا عن إفساد أخلاق رجال الدين والناس في آن معًا)[١٣] (أمر جون كالفن بإحراق مايكل سيفيتوس المناهض لعقيدة التثليث حيًّا عام ١٥٥٣). ولم يتأثر بالديمقراطية التي شاهدها حتى ذلك الحين في المستعمرات الأمريكية. ولاحظ (الفصائل الفئوية المتخمة بالأحقاد والضغائن المؤذية التي يتعذر فصلها عن الديمقراطيات الصغيرة)[١٤]، وتوقع أن (يتضاعف ضرر هذه الفصائل الفئوية عشر مرات عن ذي قبل) إذا فاز الأمريكيون باستقلالهم[١٥]. واعتقد أن النزاعات الأمريكية الداخلية (سوف تتفجر قريبًا على الأرجح إلى عنف سافر وسفك دماء)[١٦]. أخطأ سميث فيما يتعلق بـ (قريبًا). إذ سيتطلب الأمر خمسة وثمانين عامًا قبل قصف فورت سومتر(*).

(*) موقع أول معركة في الحرب الأهلية الأمريكية (١٨٦١). (المترجم).

لكـن، إذا تعـذر على المـرء وضع ثقتـه في الأغلبية، فـلا بد أن يضعها في الأقلية. وهذا مـا فعله سميث: (يعتمد استقرار كل نظام قائـم على الحكم الحـر وديمومته، على القوة التـي يمتلكها الجزء الأكـبر من الزعامة، والارستقراطيـة الطبيعية في كل بلد، للحفاظ علـى أهمية كل منهما)[١٧]. هذه الثقة بـ (الأرستقراطية الطبيعية) قـادت سميـث إلى منطـق خطر، بـل مشابه للمنطق الـذي ساد في أمريكا اللاتينية:

حيـث توضـع القـوة العسكرية تحت قيـادة أولئك الذيـن يمتلكـون أكبر مصلحة في دعـم السلطة المدنية، لأنهـم يمتلكون أكـبر حصة من السلطـة، يستحيل على الجيش أن يمثـل خطـرًا علـى الحرية.. فالأمـن الذي يمنحـه إلى الملك يجعـل تلك الغيرة المسببـة للمتاعب، التـي تبـدو في الجمهوريات الحديثة كأنهـا تـراقب أدق التفاصيـل، ومستعـدة دومًـا لتعكـير صفـو كل مواطـن وأمنه، غير ضرورية[١٨].

من المستحيل تخيل آدم سميث يكتب مثل هذا الهراء عن الأخلاق أو الاقتصـاد. فلديه اليد الخفية التي تحمل عصا المارشالية. وضع (المراقب الحيـادي) في منزل فخم وسط أرض واسعة. وفهم آلية عمل الحرية الطبيعيـة في أخلاقنا ومحافظ نقودنا، لكنه لم يمتلك المفتـاح لتشغيلها في صنـدوق الاقتراع. وحين خلـط مكونات وصفة تحضير السياسة، استبدل بالحرية الطبيعية الحيوية تلك المصنعة والمعالجة، و(الأرستقراطية الطبيعية) المعدلة وراثيّاً.

لا فائدة من انتقاد سميث. فبعد أكثر من مئتين وثلاثين سنة من التجربة والخبرة، ما زلنا نجهل الكثير عن الديمقراطية. اكتشفنا أنها تعمل بنجاح. فإذا قارنت البلدان التي تتمتع بأعظم درجة من الديمقراطية مع تلك التي تتمتع بأعظم قدر من الأشياء الأخرى التي تثمنها وتقدر قيمتها، تصبح متماثلة. لكن تقصي حالة أي حكومة منتخبة ديمقراطيًّا يؤدي إلى شعور بالذهول العميق المربك حول أسباب نجاح الديمقراطية. وكل انتخابات ديمقراطية تنتج عرضًا موحشًا وهزيلًا لآلية عملها الناجحة. ربما يكمن السبب في أننا، نحن البشر بكل حماقاتنا، نحيّد بعضنا بعضاً. وربما لا يختلف الأشخاص المتمكنون سياسيّاً عن الآفات والضواري.

يمكن لجرعات صغيرة من السياسة أن تجعل الحياة أفضل حالًا، بالطريقة التي قيل فيها إن تناول جرعات صغيرة من السم كل يوم جعل ملك بونتوس، ميثريديتيس، يتمتع بالمناعة من التسمم. لكن السياسة، بوصفها مشروعًا، غير مناسبة لتكون جزءًا من مشروع لتحسين حياة البشر. السياسة مشروع مختلف اختلافًا كليًّا. عرف سميث هذه الحقيقة. وقدم الحجة على التمايز بين الأخلاق والسياسة في (نظرية العواطف الأخلاقية):

> **ما هي المؤسسة الحكومية التي تنزع إلى تشجيع سعادة البشر بوصفها المطلب السائد عموماً للحكمة والفضيلة؟ الحكومات كلها مجرد علاج قاصر لنقصها[19].**

أكـد سميث على التمييز بين الاقتصاد والسياسة، وضرورة فك الارتباط والاشتباك بينهما في (ثروة الأمم):

الجشع الوضيع والنزعة الاحتكارية في التجار، الذين يجب ألا يكونوا حكام البشر، وهم ليسوا كذلك، يمكن منعهما بكل سهولة، وإن تعذر تصحيحهما، من تعكير صفو أي شخص وحياته الهادئة، باستثنائهم هم أنفسهم[٢٠].

وعن السياسة نفسها، أعلن:

إن عنف حكام البشر وظلمهم شر مستطير قديم العهد، وأخشى أن طبيعة شؤون البشر نادرًا ما تسمح بعلاجه[٢١].

١٣

بحث استقصائي في آدم سميث

اعترف آدم سميث فعلًا بعلاج واحد لعنف حكام البشر وظلمهم: يجب أن يحكم البشر أنفسهم بأنفسهم. ولم يقترح اختيار قادتنا ديمقراطيًّا. فقد تبين أنهم لا يتخلون عن العنف والظلم بأي حال من الأحوال. ولا عن الحمق والغباء. فالأنا لديهم بارزة متضخمة. وهم مع مرؤوسيهم ومساعديهم يلهون ويعبثون، ويماطلون ويسوفون، ويضيعون الوقت ويؤجلون النظر في القضايا الملحة ذات الأهمية الوطنية. ولا يصغون إلا إلى آراء زوجاتهم الحمقاء، ولا يطيعون سوى مستشاريهم السياسيين وأفكارهم الهوجاء. ما أراد سميث منا فعله هو استخدام قدراتنا الذهنية والجسدية لجعل حكام البشر غير ضروريين وغير مهمين بقدر الإمكان، وتركهم في قلاعهم التي تذروها الريح مثل أسلافهم من السادة الإقطاعيين.

بهـذه الطريقة وغيرهـا، اعتمدت فلسفـة آدم سميث اعتمادًا راسخًـا على التشبث بأمان الواقع الحقيقي. يمكن استخدام أفكاره وتطبيقهـا. إذ إن (نظريـة العواطف الأخلاقيـة)، و(ثروة الأمم) يـزودان القارئ بأفـكار عملية قابلـة للتطبيق لا أفـكار أنطولوجية (مهمـا كان معناهـا). كأنما الامتحـان الذي أجريتـه عن المقدمة التمهيديـة للفلسفة أسقط كتاب كانط المعقد (نقد العقل المحض)، واستبدله بمقالة نقدية سهلة لشقيقتي الصغرى!

إلا أن سميث كان فيلسوفًا. وربما يعرض كتابا (نظرية العواطف الأخلاقيـة)، و(ثـروة الأمم) برنامجًـا للتفكـير العملـي، لكنهمـا لا يقدمـان خطـة للتطبيق العملـي. ولا يوفـران بالتأكيـد برنامجًا سياسيًّا، مثلما أظهرت نصيحة سميث فيما يتعلق بالسياسة.

يعـرف قاموس ويبستر الفلسفـة، في المعنى الرابع للكلمة، بأنها (جملة أفكار الفـرد ومعتقداته)، (وبالمصادفة، يجب قراءة المعنى الرابـع للتوصـل إلى تعريف مفيد للفلسفـة). لا حاجة بنا لتفحص جملـة أفكار ومعتقدات الرجـل الذي يصلح سيارتنـا، إلا إذا أدين بسرقـة أسطول مـن السيـارات أو تبنى فكرة تقول بضـرورة وضع الدبس في المكربن (حـارق الوقود). إذ يجب ألا تهمنا كثيرًا الحياة الخاصـة للميكانيكـي - ولا حتى للرئيـس. لكن الفيلسـوف مسألة مختلفـة. لدينا اهتمام مشـروع بمعرفة ماهية الحيـاة التي أنتجت جملة أفـكار آدم سميث ومعتقداته. صحيـح أن حياة الفرد لا تؤكد

حقيقة أفكاره، مثلما تظهر أفكار الرجال عن الممثلة شارليز ثيرون، لكن الحياة معرض للأدلة والبينات في محاكمة تلك الأفكار.

تحظى هذه الأدلة بأهمية خاصة في حالة الفيلسوف الذي يتبنى الحرية ويستخدمها لممارسة معتقده المتبنى. على سبيل المثال، يجد الرومانسيون والمتطرفون الآن أن من الضروري إدانة جان جاك روسو، الذي نال إعجاب ثمانية أو تسعة أجيال. فقد احتفظ مؤلف (العقد الاجتماعي) بغسالة جاهلة خليلةً له وعاملها معاملة وحشية على مدى ثلاثة وثلاثين عامًا. أما أطفالهما الخمسة فقد وضعوا في ملاجئ الأيتام عند الولادة، ولم يكلف روسو نفسه حتى عناء تسميتهم. عبر سميث نفسه ذات مرة عن إعجابه بروسو، حيث قال لضيف زاره إن: (روسو يوجه القارئ إلى العقل والحقيقة عبر جاذبية العاطفة وقوة الإقناع)[1]. لكن سميث كتب أيضًا رسالة من باريس إلى ديفيد هيوم عن (هذا المتحذلق المنافق). وأضاف: (أنا مقتنع تمامًا بأن روسو وغد كبير.. مثلما يعتقد الكل هنا)[2]. ومن المشكوك فيه أن سميث سمح لنفسه بالخضوع لتوجيه روسو نحو العقل أو الحقيقة أو أي شيء آخر دون مراقبة دقيقة للسبيل الذي دفع إليه. فروسو، وليس سميث، هو من كتب: (كل شيء يعتمد في أصله وفصله على السياسة)[3].

من كان آدم سميث فعلًا، وإلى أي مدى يجب ألا نتدخل في حياته الشخصية.

لدينا سبب وجيه لنعرف المعلومات الضرورية عن حياة آدم سميث، لكن تواجهنا مشكلتان اثنتان. المشكلة الأولى يمثلها سميث ذاته. إذ لم يترك مذكرات؛ كان مغرمًا بالمراسلة دون اهتمام كبير بجمع الرسائل التي تلقاها؛ بل أحرق ملاحظاته المتعلقة بالأبحاث والدراسات. ولم يكن لديه متملق مداهن يدون كل فكرة وكل لمحة. ولا مدونة على الإنترنت.

المشكلة الثانية نمثلها نحن وما اعتدنا معرفته عن العظماء أو الذين يدعون العظمة. تعودنا البحث عن المعلومات كلها. ثمة سيرة مستمرة لليندون جونسون، تطلبت كتابتها وقتًا يعادل المدة التي قضاها ليندون جونسون فاعلًا في حياته السياسية. وسوف تتطلب مني قراءتها مدة أطول. إن النفس الإنسانية لا يمكن أن يعلم أغوارها سوى بارئها، ولذلك فإن أفضل ما يمكن للبشر الفانين الحصول عليه من مثل هذا المشروع التطهري مجرد فهم لشخصية موضوع السيرة العظيمة.

لم تبتكر (الشخصية) في القرن الثامن عشر؛ فقد قبلت وجهة نظر كوبرنيكوس عن الكون. ولم تعد الأرض قابعة في مركزه؛ لكن نظرة الأفلاطونيين الجدد الرومانسية للكون لم تتشكل بعد: لم تأخذ الذات مكان الأرض بعد. ولم تكن مضمومة النعرات العصبية اللاإرادية والسمات والخصائص المميزة والأفكار اللامعقولة التي تجعل شخصًا مختلفًا عن آخر، مهمة وجوهرية. فقد كانت

الشخصيـة تعني في القرن الثامن عشر شخصًـا لا شيئًا. ويبدو أن رالـف والدو إيمرسـون، المتشدق المؤمن بالـذات حقيقةً وحيدة، هو من ابتدأ استخدام الكلمة بالمدلول الذي نستعمله الآن.

كان كل فرد في القرن الثامن عشر يعد شخصًا. فإذا امتلك أي خصال شخصية مميـزة، استحق التنويه والإشادة بشخصه. وكما هي أفضل الأشياء في الحياة، فإن الشخصية مملة ورتيبة. (الرذيلة نزويـة ومتقلبة، في حين تتصف الفضيلة بالنظام والترتيب)، مثلما كتب سميـث في (نظرية العواطف)[٤]. وبرأيه فـإن (الفارق المميز بـين رجـل المبـادئ والشـرف والشخـص التافـه عـديم القيمة هو أن الأول يتشبـث، في المناسبـات والحـالات كلهـا، بتصميـم وثبات بمبادئـه، ويحافظ طوال حياته على مسار متكافئ من السلوك. أما الآخر فيتصرف بطريقة متقلبـة واعتباطية، حيث يكون للدعابة أو الميل النفسي أو المصلحة اليد العليا)[٥].

كل شخـص في العصر الحديث عديم القيمة، وفقًا لرأي سميث. ولا عجب أن العديد من الأشخاص الذين عاشوا في القرن الثامن عشر ونالـوا الإعجـاب لا (يبعثون أحياء على صفحـات الكتب) في نظرنا، نحن المحدثين. في هذه الأثنـاء، يُبعث بعض من الأقل نيلًا للإعجاب، مثـل روسو، ويـدب فيهم النشاط والحيوية إلى حـد يتطلب التخلص منهم اليوم. تغلب ريتشارد بروكهايزر على مشكلة الشخصية الطيبة هذه في تأريخه لسيرة جورج واشنطن (الأب المؤسس):

تقلقنا حقيقتنا الصادقة الموثقة - فيما يتعلق بتمثيلاتنا وهل تعبر فعلًا عمن نكون (حقًّا). كان الأمريكيون في القرن الثامن عشر أكثر اهتمامًا بالقصة الخارجية وأقل حماسة للفصل بين ظاهر الشخص وباطنه. كانت (الشخصية).. دورًا يلعبه المرء إلى أن يصبح هو؛ عنت (الشخصية) أيضًا كيف يحكم الآخرون على الدور. أداء ومراجعات في آن معًا. ولكل إنسان شخصية يحافظ عليها؛ كل إنسان ممثل شخصية[٦].

كان دور آدم سميث، على شاكلة فريد ميرتز في (أحب الاقتصاد السياسي)، منظمًا ومرتبًا ومملًّا مثلما يأمل أي مروج لأفكاره ومدافع عن شخصيته. فقد عاش معظم سنوات الرشد مع أمه الأرملة، مارغريت دوغلاس سميث، وابنة خاله العانس، جانيت دوغلاس. تبادل معهما الحب والود. (ولا شيء يمكن إضافته).

لا تناسب تعليقات سميث على أمه، حين أبلغ صديقه الناشر وليام ستراهان عن وفاتها عن عمر ناهز التسعين، ما تتناوله المذكرات عادة في القرن الحادي والعشرين: (أحبتني بالتأكيد أكثر من أي شخص آخر فعل أو سيفعل؛ وأنا أحببتها وأجللتها أكثر من أي شخص سوف أحبه أو أحترمه)[٧].

ثمة رواية عن حادثة عائلية واحدة وصلتنا عام ١٧٨٨ تقريبًا، عبر السير والتر سكوت(*)، الذي كان حينذاك طالبًا في جامعة

(*) (١٧٧١-١٨٣٢): شاعر وروائي اسكتلندي. (المترجم).

إدنبرة. قال سكوت إن سميث سبب لجانيت دوغلاس حين جلست العائلة لتناول الشاي: (ارتباكًا محرجًا حين أهمل تمامًا دعوتها إلى الجلوس، وظل يدور حول المائدة.. ليتوقف لسرقة قطعة سكر من السكرية، التي تعمدت العانس المحترمة وضعها على ركبتها، بوصف ذلك الطريقة الوحيدة للحفاظ عليها من عمليات النهب المبذرة)(٨). لكن بمقدور السير والتر سكوت تلفيق قصة من أي شيء، وكثيرًا ما فعل ذلك.

أُحضر ديفيد دوغلاس، وهو حفيد خال آخر لسميث، إلى العائلة حين كان (سميث) أعزب في الخامسة والخمسين. لم يكن التلفزيون، ولا ألواح التزحلق، ولا ألعاب الفيديو قد اخترعت بعد، فاستغل الفرصة وأمضى وقت فراغه في إعطاء الدروس لديفيد (نأمل أن يكون قد لجأ إلى أسلوب ميسر لتدريسه "التغيرات في قيمة الفضة على مدى القرون الأربعة الماضية"!). أصبح ديفيد دوغلاس وارث سميث. وخلافًا للعقدة في قصة ورثة الشخصيات البارزة التي ألفناها (ما يقابل "إعادة التأهيل" بلغة الاسكتلنديين)، سوف يرتقي دوغلاس منصة القضاء الاسكتلندي باسم اللورد رستون.

ليس ثمة سجل يتهم سميث بالمراوغة، أو الخداع، أو بالغش، أو حتى بالرغبة في العمل في الشركات التي ابتكرتها الطبقة الوسطى المبجلة التي ينتمي إليها. فقد استقال من مهنة التدريس في جامعة غلاسكو ليعمل مدرسًا ومعلمًا (خصوصيًّا) لدوق بوكليوتش. ولأنه

تــرك العمل في منتصف العام الدراسي، حــاول إعادة الرسوم التي دفعها طلابه. أحبه هؤلاء إلى حد رفضهم قبول المال المردود. فأعلن سميــث: (يجب ألا تحرموني من هذا الرضى؛ لا، وحق السماء، أيها الســادة، لا تفعلوا). ثم أمسك بأقرب طالب من معطفه ووضع المال في جيبه(٩).

تلقــى سميث راتبًا تقاعديًّا مدى الحياة على تعليم الدوق، الذي دعاه (صديقًــا أحببته وأجللته، لا بسبب مواهبــه الفكرية العظيمة فقط، بل كل فضيلة تمتع بها)(١٠). بعد سنوات، ساعد الدوق سميث في الحصول على منصب حكومــي، ورد سميث بعرض بالتنازل عن راتبــه. أما الأسلوب الوحيد الــذي اتبعه الدوق لإقناعه بالتخلي عن هــذا العمــل المشرف الــذي يعبر عن الكبريــاء والاعتــزاز بالذات، فهــو إسباغ مزيد من الشرف الشخصي عليــه. ومثلما شرح سميث في رسالــة بعث بهــا إلى أحد الأصدقاء: (أرســل لي صاحب النيافة يقــول إنني لم آخــذ بالاعتبار مــا يناسب كرامته وشرفــه، مع أنني أخــذت بالاعتبار ما يناسب كرامتي وشــرفي؛ وإنه لن يتحمل معاناة الاشتباه بأنه دبر وظيفة لصديقه لكي يحرره من عبء ذلك المعاش التقاعدي)(١١).

عاشــ سميــث حيــاة مريحــة وميســورة بوصفــه عضــوًا في ما وصفه (ذلــك العرق غير الثري من البشر الذيــن شاعت تسميتهم بالكتّــاب)(١٢). ووزع معظــم دخلــه هنا وهناك. ثمــة مثال يبرز في

رسالة تجارية كتبها سميث وبيعت في مزاد جرى عام ١٩٦٣[١٣]. شرح سميث قائلًا إن من الضروري إرسال مئتي جنيه (مبلغ يعادل راتبه التقاعدي في ثمانية أشهر) إلى (ابن أخ ويلزي) بحيث لا يضطر الشاب إلى بيع ترقيته إلى ضابط في الجيش. لم يكن سميث يملك عربة خاصة أو ينفق بإسراف على بيته أو ملابسه. كان ضيوفه على العشاء أيام الأحد يجلبون طعامهم معهم. (أكد وضعه المالي عند وفاته، مقارنة بمستوى حياته المعتدل في البيت، دون أدنى شك ظنون معارفه المقربين، فقد خصص نسبة كبيرة من مدخراته السنوية لمكاتب الأعمال الخيرية السرية)[١٤].

كان سميث رجلًا ضخمًا في كل شيء، بدءًا بالكفين وانتهاء بالأنف. وفي صوره المرسومة شبه بذلك الرجل الآخر المصمم على الاحتفاظ بنمط سلوكه، جورج واشنطن، لكنه أكثر بدانة وأقل ابتلاء بالديمقراطية. (كانت ملامحه رجولية ولطيفة)، مثلما قال أحد الأصدقاء[١٥]. مع (ابتسامة ودودة يتعذر التعبير عنها بالكلمات)، كما أضاف آخر[١٦].

هنالك ملمح مقلق، للقارئ الحديث، فيما يتعلق بالفضائح الرومانسية التي طالت سميث: لم يتورط في أي واحدة. وليس لدينا سوى القليل من المعلومات عن ذلك النوع الآخر غير الفضائحي أيضًا. والمؤرخ الوحيد لسيرة سميث الذي عرفه شخصيًّا هو دوغلاس ستيوارت، الذي احتل كرسي سميث القديم في جامعة

غلاسكو ودرس فلسفة الأخلاق، وابن زميل له على مقاعد الدراسة. يمكن الاشتباه بأن ستيوارت متكتم لا يفصح عن مشاعره. لكنه روى القصة الآتية:

في المرحلة المبكرة من حياة السيد سميث، عرف أصدقاؤه أنه ارتبط عدة سنوات مع سيدة بارعة الجمال فائقة الذكاء.. ولم أتمكن من معرفة الظروف التي حالت دون زواجهما؛ لكن أعتقد أن من المؤكد بعد هذه الخيبة أنه تخلى عن فكرة الزواج. والسيدة التي ألمح إليها توفيت دون أن تتزوج أيضًا.. وتشرفت برؤيتها حين بلغت الثمانين، وما زالت تحتفظ بآثار جمالها الغابر[١٧].

ويمكن الاشتباه أيضًا بأن ستيوارت كان يسهر ويقرأ الشعر الغزلي.

كتب المؤرخ الأشمل والأحدث عهدًا لسيرة آدم سميث، إيان سيمبسون روس (١٩٩٥) يقول: (يُخشى ألا يتجاوز كاتب السيرة كثيرًا، حين يتناول موضوع حياة سميث الجنسية، مجرد الإسهام بهامش في تاريخ السمو والترفع عن الأهواء الجنسية)[١٨].

إلا أني لن أكون قارئًا حديثًا حقًّا إذا لم أحاول. ترك سميث بضعة تلميحات إلى أنه رجل كباقي الرجال. ويضم كتاب (نظرية العواطف الأخلاقية) تعليقًا عابرًا ومرتجلًا من النوع الذي يقدمه الرجال الذين يعدون أنفسهم مثل غيرهم من الرجال على

الـدوام حين تحبط إملاءات الزي السائد الميـول الطبيعية: (سعت السيـدات.. طوال قرن مضـى تقريبًا إلى ضغـط قوامهن الطبيعي الجميل الملفوف إلى شكل مربع)[١٩]. وهنالك أيضًا تلك الإشارة في (ثروة الأمم) إلى (النسـوة المنكودات اللائي يعشن على الدعارة) ويعتمدن على البطاطـا غذاء لهن. ودعاهن سميث (أجمل النساء، في جميـع المناطـق الخاضعة لنفـوذ بريطانيا ربمـا)[٢٠]. ولا بد أن (يهمهم) القارئ الحديث ويومئ رأسه.

حـين كان سميث مع دوق بوكليوتش في جولـة مترفة في فرنسا، تعرضـ لغزوة غرامية من ماركيزة فرنسيـة، قال عنها مؤرخ سيرة سميـث في القرن التاسع عشر، جـون راي، إنها (صممت على الفوز بمحبتـه)[٢١]. كل ما فعله سميث هو مراوغتها والتملص منها، مما أحرجـه وسلا المسافريـن بصحبته. لكن ربما لم يكـن ذلك نتيجة العفة وحدها. فقد قال أحد الأصدقاء إن السبب الرئيس وراء عدم رغبته بالماركيزة هـو غرامه بسيدة إنجليزية تقيم في البلدة ذاتها. ويبـدو أن ذلـك أدى إلى خيبـة أمـل إضافية إلى تلـك التي وصفها دوغلاس ستيورات. وربما تخلى سميث نهائيًّا عن فكرة الزواج أكثر من مرة. فهذا ما اشتهر به الرجال.

علـى أي حال، فـاز سميث بقلب مـدام ريكوبـوني (وربما أكثر مـن قلبهـا)، التي كانـت ممثلـة شهيرة اعتزلـت المسـرح لتصبح كاتبـة روايـات رومانسيـة أكـثر شهـرة. كتبـت المـدام رسالة إلى صديقها المؤلف والممثـل المسرحي ديفيد غاريك، وهي رسالة تركها

جون راي وغيره من مؤرخي سيرة سميث حتى ستينيات القرن العشرين بالفرنسية لتجنب إحراج القراء:

أوه، يا لهؤلاء الاسكتلنديين! هؤلاء الكلاب الاسكتلندية! يأتون لإسعادي وإزعاجي! أنا مثل البنت الحمقاء التي تصغي إلى عاشق دون أن تفكر في الندم.. افعل بي ما شئت: وبخني، اضربني، اقتلني! لكني أعشق السيد سميث، أحبه كثيرًا. أتمنى لو يأخذ الشيطان كل عقولنا الأدبية، وفلاسفتنا، ويعيد إلي السيد سميث[٢٢].

ولكيلا تتفوق عليه في إطلاق العنان للمشاعر (مع أنه من النوع الاسكتلندي)، ضم سميث مدام ريكوبوني إلى مراجعته لكتاب (نظرية العواطف الأخلاقية):

الشعراء والكتاب الرومانسيون، الذين هم أفضل من يصور عذوبة الحب ورقة الصداقة، وغيرهما من المشاعر الشخصية والعائلية، راسين، وفولتير؛ ريتشاردسون، وموريفو، وريكوبوني؛ أكثر خبرة ومعرفة في مثل هذه الحالات من زينو، أو كريسيبوس، أو إبيكتيتوس[٢٣].

يمكن أن تضم قائمة سميث بعد تحديثها أسماء مثل (ستوبارد، وبنتر، وأبدايك، وبيلو، ودانييل ستيل).

لكن جرت العادة في عصر الأنوار أن تطغى سمات الفرد على خصائص الشخصية، وتمتع سميث بكثير من هذه الخصائص.

كان يتحدث إلى نفسه، ويلتفت يمنة ويسرة باستمرار حين يمشي، كأنما يريد السير في الاتجاهات كلها. أبلغ أصدقاءه ذات مرة بأنه سمع بائعة، حين كان يعبر شارعًا في إدنبرة، تعبر عن تعاطفها مع مجنون منعم على ما يبدو سُمح له بالتجول على غير هدى وحده دون مرافق.

كان شارد الذهن بطريقة محببة. حين كان يعمل على (ثروة الأمم) في منزل والدته في كيركالدي، اعتاد أن يخرج إلى الحديقة بلباس النوم، لكنه شرد مع أفكاره وخرج إلى الطريق. سار إلى دومفيرلين على بعد خمسة عشر ميلًا، قبل أن توقظه أجراس برج الكنيسة من شروده الذهني ليدرك أنه يلبس ثوب النوم وخفين وسط حشد من الناس الداخلين إلى الكنيسة.

قال أحد الذين تناولوا الإفطار مع سميث في لندن إنه، في خضم الحديث المحتدم، وضع الزبدة والخبز والماء المغلي في إبريق الشاي، وشرب، ثم أعلن أنه أسوأ فنجان شاي شربه في حياته. كان زملاؤه الأساتذة في جامعة غلاسكو يتجنبون لعب الورق معه، لأنه يخطئ في اللعب حين تخطر له فكرة. عندما كان يتناول العشاء في مزرعة دوق بوكليوتش، بدأ ينتقد بشدة أحد السياسيين النافذين بينما جلس قريبه مقابله. ولم يتوقف إلا عندما أدرك ذلك. لكنه تابع مكلمًا نفسه، ليقول بسرور وتهور إن انتقاده صحيح.

تصنف غالبية هذه القصص في الفئة التي يدعوها الصحفيون (موثوقة إلى حد انتفاء الحاجة إلى التحقق من صدقيتها). لكن

هنــاك أدلة دامغة تثبت صحتهــا عمومًا في ملاحظات الطلاب التي دونوها أثناء محاضـرات سميث في جامعة غلاسكو عن البلاغة في الخطابة. ذكر سميث شخصية شاردة الذهن في مسرحية فرنسية، و(خربش) أحدهم على الهامش ملاحظة باللاتينية تعني (انظروا من يتكلم).

حين كان سميث مسؤولًا حكوميًّا في إدنبرة، عُين أمام بابه حارس يرتدي ملابس عسكرية مزركشة ويحمل صولجانًا طوله متران. وفي كل يــوم يصل فيه سميث إلى مــكان عمله، يؤدي له الحارس التحية. في أحد الأيام، فــتن بالمراسم، واستخدم عصــاه الخيزرانية عوضًا عــن الصولجان، ليقلــد حركات الحارس ومشيتــه. ولم يستطع أحد فيما بعد إقناع سميث بأنه تصرف تصرفًا غريبًا. يقول ستيورات إن سميث تبنى نظرية أخلاقية تشير إلى أن معظم المتعة التي نستمدها من فنون التقليد والمحاكاة لها علاقة بصعوبتها. أو ربما كان يسخر.

بقــدر مــا اشتهــر بشــرود الذهــن، عــرف بالاتصــال بالواقع والحضــور. فقد ثمــن عاليًا التواصــل الاجتماعي إلى حــد إضافته إلى القسم المتعلق بآداب السلوك في (نظرية العواطف الأخلاقية): (تمثـل العلاقــات الاجتماعية والحــوار.. العلاج الأقــوى لاستعادة هــدوء البال وصفاء الذهن)[٢٤]. كان عضوًا في مجموعة واسعة من النوادي، بدءًا بجمعية لندن الملكية وانتهاء بجمعية إدنبرة المختارة، التي ناقشــت موضوعات مثل الحجم المثالي للمــزارع في اسكتلندا،

وعرضت جائزة لكل من يتمكن من (العثور على حل لأكبر عدد من المداخن). بل نال رتبة نقيب شرفي في حرس مدينة إدنبرة. لكن لا نعلم هل حصل ذلك قبل أن يقلد حارس مكتبه أم بعده.

من المؤكد أن سميث كان شخصًا ودودًا محبوبًا. يروي جون راي حكاية عن أستاذ جامعة فرنسي يدرس الجيولوجيا أجبره سميث على حضور حفلة لموسيقى القرب (الاسكتلندية). وصف الأستاذ الموسيقى بأنها (أشنع صوت سمعته). لكن ذكر الفرنسي نفسه فيما بعد أنه (لم يزر أحدًا في إدنبرة أكثر مما زار سميث)[٢٥].

عرف سميث ديفيد هيوم، وإدوارد غيبون، وبت الابن، والسير والتر سكوت، وفولتير، وروسو، وإدموند بيرك، وجيمس واط، وبنجامين فرانكلين، ودوق روشفو. ومن المستحيل اليوم معرفة هذا الطيف الواسع من الأشخاص. وعلى أي حال لا يوجد مثلهم في هذا العصر.

كان ديفيد هيوم أقرب أصدقاء سميث إليه، فقد قابله في إدنبرة عام ١٧٥٠ تقريبًا. ثمة شيء في علاقتهما السامية الفكرية يشبه العلاقة بين لوريل وهاردي، لكن دون تبادل قذف (قوالب الكاتو) أو نوبات الغضب الصبياني، أو بين هاردي وهاردي، لأنه لم يكن أي منهما نحيلًا أو موجزًا في كلامه. هنالك فقرة في (نظرية العواطف الأخلاقية) يبدو أنها تمثل نسخة الممثل الهزلي، الذي يستفز التعليق الساخر من شريكه، للعلاقة:

لكن من بين كل الروابط مع فرد بعينه، التي أسست على تقدير سلوكه اللائق واستحسان تصرفاته المهذبة، وتؤكدها التجربة المديدة والصحبة الطويلة، وهي عمومًا الأكثر احترامًا.. الرابطة التي ارتكزت على حب الفضيلة، وهي بالتأكيد الأكثر تشبثًا بالفضيلة من بين الروابط كلها؛ ومن ثم فهي الأكثر إسعادًا، وديمومة، وثباتًا[٢٦].

فيما يتعلق بنسخة هيوم، هنالك مشهد هزلي مفصل في ألف ومئتي كلمة ضمن رسالة كتبت في لندن وأرسلت إلى سميث المنتظر في غلاسكو على أحر من الجمر ليعرف كيف استقبل القراء نشر كتاب (نظرية العواطف الأخلاقية). عدد هيوم أسماء الأشخاص المهمين الذين أعطاهم نسخًا وزوده بتفاصيل عن سيرهم المهنية، قبل أن يقول:

(أخرت الكتابة إليك إلى أن أتمكن من إخبارك شيئًا عن نجاح الكتاب، والتنبؤ بمستقبله ببعض الأرجحية: هل يكون مصيره النسيان والإهمال والفناء، أم يسجل في معبد الخلود. ومع أنه لم ينشر إلا قبل بضعة أسابيع، إلا أنني أعتقد أن هناك أعراضًا قوية ظهرت، إلى حد أنني أستطيع المخاطرة بالتنبؤ بمصيره. مصيره باختصار هو.. لكن قاطعتني زيارة وقحة حمقاء من شخص أتى مؤخرًا من اسكتلندا. وها هو يخبرني أن جامعة غلاسكو تنوي إعلان حاجتها إلى تعيين..).

بعـد ذلك يضيف هيوم فقرة مطولة عما يدور من كلام وأقاويل حـول مـن سيشغـل المنصـب، لينتقـل إلى الإشاعات عـن المعارف المشتركـين بينهما، ثم يستطرد حول صديقهما اللورد كيمس وكتابه (دراسات القانون التاريخية)، الذي يقول عنه هيوم:

(ومـن يفكـر بتحضير صلصـة سائغة من خلطـة من الحنظل والصـبر، يشبـه مـن يفكر بتركيـب مستسـاغ ومرض مـن إضافة الميتافيزيقـا إلى القانـون الاسكتلنـدي.. لكن بالعـودة إلى كتابك، ونجاحه في هذه البلدة، يجب أن أبلغك – وباء كاسح من المقاطعات! أمـرت بألا يدخل علي أحد؛ ومع ذلك ها هو رجل يقتحم علي المكان مجددًا. إنـه رجل فكر وتبادلنا كثيرًا من الأحاديث الأدبية. أبلغتني بأنك مغرم بالنوادر الأدبية، ولذلك سأروي لك بعض..).

وهذا ما فعله.

ستقول: (لكن ما علاقة ذلك كله بكتابي؟ عزيزي السيد سميث، تحلـى بالصـبر: هدئ أعصابـك. أثبت أنك فيلسـوف في الممارسة العمليـة مثلما أنت في المهنة: فكر بخواء الأحكام المشتركة للإنسان، وتهورهـا، وعبثيتها: كم هـي بعيدة عن تنظيم العقل في أي موضوع، فضلًا عن الموضوعات الفلسفية، التي تجاوزت فهم العامة).

أقحـم شاهدًا لاتينيًّا مناقضًا بعد سلسلة إضافية من النصائح بالتـزام الهـدوء والاتـزان، وقصة عـن السياسي الأثينـي فوشيون

وكيف اشتبه دومًا بأنه ارتكب خطأ كلما صفق له الجمهور. (لذلك، لنفترض أنك جهزت نفسك على أكمل وجه لمواجهة الأسوأ عبر هذه الأفكار التأملية؛ وسأتابع لإبلاغك الخبر المثير للكآبة: كتابك كان سيئ الحظ؛ إذ يبدو أن الجمهور ميال إلى التصفيق له بحرارة. وبحث عنه الحمقى بصبر وأناة؛ وبدأ الغوغاء من المفكرين يمتدحونه بأعلى أصواتهم)[٢٧].

في هذا الكتاب، الذي امتدحه الغوغاء من المفكرين بأعلى أصواتهم، عبر آدم سميث عن اعتقاده بأن (الجزء الرئيس من السعادة البشرية ينبثق من الوعي بمحبة الآخرين)[٢٨]. إلا أن سميث لم يكن واحدًا من أولئك الأفراد المزعجين الذي يقال عنه (إنه محبوب من الكل). فالدكتور جونسون لم يكن يحبه. من المفترض أن لقاءهما الأول جرى في حفلة في لندن، وفي وقت لاحق من تلك الليلة، ظهر سميث في حفلة أخرى ليقول عن جونسون: (إنه وحش؛ وحش). إذ هاجم جونسون سميث بسبب دفاعه عن شخصية هيوم على الرغم من آرائه الجمالية، وألح سميث على الدفاع عن هيوم.

سئل سميث: (ماذا قال جونسون؟).

(قال أنت كذاب).

(وماذا قلت أنت؟).

(قلت: أنت ابن عاهرة)[٢٩].

يبدو أن هذه القصة ليست صحيحة تمامًا. لكن لنقبل ما تسرب عن اللقاء بين أعظم عقلين في ذلك العصر.

مـن الواضـح أن سميث وجونسـون تبادلا بعضـ العبارات غير الوديـة. وحين أعلـم بوزويـل(*) الدكتور جونسـون أن سميث يمقت الشعر المرسل الحر، قال جونسون: (سيدي، كنت ذات مرة بصحبة سميث، ولم نتبادل الحديث، لكن لو عرفت أنه مغرم بالشعر الموزون المقفى مثلما تقول لعانقته)[٣٠].

لكن لا بد أن العلاقة تحسنت لأن سميث أصبح عضوًا في (النادي الأدبـي)، حيث كان الدكتور جونسون محط الأنظار وبؤرة الاهتمام. كمـا دافع جونسون عن (ثروة الأمم)، قائـلًا: (لا ريب في أن من لم يعمـل في التجـارة سيتفوق في الكتابـة عن التجـارة، ولا يوجد شيء يتطلب الشرح والتفصيل بواسطة الفلسفة أكثر من التجارة)[٣١].

(*) كان بوزويـل طالبـاً متملقاً لسميـث في جامعة غلاسكو، لكنه أصبح فظـاً صفيقاً فيما بعد. وبعـد موت ديفيد هيوم، كتب سميث مرثيـة قال فيها: (كنت أعده دوماً.. أقرب ما يمكن إلى فكرة الإنسان المثالي في الحكمة والفضيلة، بقدر ما تسمح به طبيعة البشر الهشة). انظر:
Correspondence of Adam Smith. Edited by E. C. Mossner and I. S. Ross. Oxford، 1977. Liberty Fund، 1987، p. 221.
لكـن بوزويـل عدّ المرثية تجديفـاً وإهانة للمسيحيـة، ودعاها (وقاحة) وتبجـح قائلاً: (من المؤكد أنني الآن أكثر فهماً من أساتذتي). انظر:
Rae, John. Life of Adam Smith. London: Macmillan, 1895, p. 312.
ومـن المؤسف أن سميث هو الملام ربما على جود أمثـال بوزويل الذين يفضحون كل شيء في هذا العالم. زعم بوزويل أن سميث نفى، في محاضراته عن الخطابة والبلاغة، أن يكون من التهور والطيش معرفة تفاصيل حياة العظماء، وأنه سعيد لمعرفة أن ميلتون استخدم الرباط لحذائه لا الإبزيم. انظر:
Rae, John. Life of Adam Smith. London: Macmillan, 1895, p. 371.

حياة آدم سميث: وصف وجيز:

ولد آدم سميث عام ١٧٢٣، وهو ابن آدم سميث آخر كان محاميًا عسكريًّا في اسكتلندا، ومشرفًا ماليًّا على الجمارك في مقاطعة كيركالدي. يمكن لفرويدي ليبرتاري (إن وجد مثل هذا التعبير) أن يستشف شيئًا من الموقف النفسي لسميث الابن تجاه التجارة الحرة.

كانت أسرته ميسورة الحال ومتوسطة النفوذ والصلات. أمضى طفولته في كيركالدي على الضفة الأخرى من خليج (ومصب نهر) فورث مقابل إدنبرة. حدثت أعظم مغامرة في حياته حين كان في الرابعة. فقد اختطفته جماعة من الغجر، لكن (في نهاية مخيبة للقصص المثيرة ربما) عثر عليه بعد بضع ساعات. كتب مؤرخ سيرة سميث، جون راي، يقول: (أخشى أنه كان سيصبح غجريًّا فقيرًا)[٣٢]. لست متيقنًا من صحة هذا الرأي. فبدلًا من قراءة الطالع وممارسة أعمال الخداع، يمكن لغجر هذه الأيام إدارة مجموعة سيتي كورب!!

انتسب سميث إلى مدرسة في قرية صغيرة في مقاطعة كيركالدي، يبدو أنها مختلفة نوعًا ما عن مدرسة القرية الصغيرة التي التحق بها أطفالي. فقد بدأ سميث دراسة اللاتينية في عمر العاشرة. وفي الرابعة عشرة، أرسل للدراسة في جامعة غلاسكو، في كلية لطلاب السنة الأولى لنيل الشهادة الثانوية في تلك الأيام. وهذا

ما زوده بالذريعة للتصرف مثل طلاب الجامعة، رغم عدم وجود دليل لدينا يثبت ذلك.

كانت الرياضيات الموضوع المفضل لسميث. ولا ندري هل لذلك معنى منطقي أم لا، فهو يعتمد على مدى تأثير الرياضيات - في رأينا - في اقتصاد السوق الحر. لكن الأستاذ المفضل لدى سميث كان فرانسيس هتشسون، الفيلسوف، والمتخصص في فلسفة الأخلاق، وأحد أشهر مفكري عصر الأنوار الاسكتلندي، الذي وضع نوره هذه الأيام تحت عبء التاريخ الفكري. كان هتشسون أول أستاذ في جامعة غلاسكو يحاضر بالإنجليزية بدلًا من اللاتينية. ودافع دفاعًا قويًّا عن الحرية الشخصية والجزء الاقتصادي من تلك الحرية، الذي نعده من الحقوق الشخصية. وهتشسون، لا جيرمي بينثام، هو أول من أعلن أن العامل الحاسم في الأخلاق هو (تحقيق أكبر قدر من السعادة لأكبر عدد من الناس)(*)(٣٣).

دان سميث بجزء من الفضل إلى هتشسون على أطروحة اعتماد الحق في الملكية على العمل (قدم جون لوك حجة مشابهة). فقد اعتقد هتشسون أن للإنسان الحق في الملكية لأنه يتمتع بحق الاستفادة من العمل الممارس على تلك الملكية. وزود بطريقة غير مباشرة آدم سميث بفكرة (المراقب الحيادي). واستنتج أن التعاطف لا يمكن أن يشكل أساس الأخلاق لأننا كثيرًا ما نوافق على

(*) بغض النظر عن (جمهورية) أفلاطون، الجزء الرابع: (هدفنا من تأسيس الدولة لم يكن السعادة غير المتناسبة لأي طبقة، بل أعظم قدر من السعادة للكل).

أفعال أشخاص لا نتعاطف معهم. ووجد سميث سبيلًا للالتفاف على هذه الحجة.

أثناء السنة الأولى من دراسة سميث في جامعة غلاسكو، حاول رجال الدين (من الكنيسة المشيخية) حرمان هتشسون من الحقوق الكنسية. وعُدّ من المغالين في التفاؤل من الناحية الدينية، حيث قال إن الله يسر لنا سبلًا لتمييز الخير من الشر حتى وإن لم نكن من المؤمنين بالأديان. استمر النزاع بعد موت هتشسون، لكن يبدو أنه أثر في سميث. وكان في أعماله معاديًا على الدوام للجدل الديني، بل للدين نفسه، لكن في الوقت ذاته، تدبر أمر البقاء، بطريقته الخاصة، في فئة المتفائلين دينيًّا.

حصل سميث على منحة دراسية (من النوع السائد في عصره) أتاحت له الانتساب إلى جامعة أكسفورد. كان طفلًا معتل الصحة، لكنه لم يكن ضعيفًا خائرًا. فقد اعتاد السفر المرهق والموجع مسافة ٣٥٠ ميلًا على ظهر حصانه من غلاسكو إلى إدنبرة.

كره المكان. في جامعة أكسفورد، تخلى الجزء الأكبر من الأساتذة طوال سنين عديدة حتى عن التظاهر بالتدريس، مثلما كتب[٣٤]. قضى وقته في القراءة الموسعة والمسهبة حتى بمعاييره. قرأ الكتب باللاتينية، واليونانية، والفرنسية، والإيطالية، والإنجليزية. وقبض عليه متلبسًا بقراءة كتاب هيوم (بحث في الطبيعة الإنسانية)، وذلك قبل أن يلتقي الاثنان وجهًا لوجه، وإن تبادلا الرسائل. صادر المدرسون المحافظون الكتاب. ويبدو أن مدة بقائه في أكسفورد، من

عمر السابعة عشرة إلى الثالثة والعشرين، هي المدة الوحيدة في حياة سميث التي لم يعقد فيها أواصر الصداقة مع أحد.

في عام ١٧٤٦ تخلى عن المنحة وعاد إلى بيته ليعيش مع أمه. وكسب رزقه من محاضرات مأجورة ألقاها عن الأدب الإنجليزي. كان معجبًا ببوب وغراي، ولم يحب قصائد ميلتون القصيرة والأكثر متعة. واعتقد أن درايدن تفوق في الشعر على شكسبير ووافق على رأي فولتير بأن شكسبير كتب مشاهد بارعة لكن مسرحياته لم تكن على المستوى ذاته من البراعة. في مقدمة (قصائد غنائية)، سيدعو وردزورث سميث (أسوأ ناقد أنتجته اسكتلندا، التي يبدو هذا النوع من الأعشاب الضارة طبيعيًّا في تربتها، مثلما توقع ديفيد هيوم)[٣٥].

ربما لم يبالغ سميث نفسه في تقدير قيمة هذه المحاضرات. فثمة تعليق في (نظرية العواطف الأخلاقية) على بعض الأشياء بوصفها (مجرد أمور تتعلق بالذوق)، وتعاني (ضعف وهشاشة تلك الأنواع من المدركات)[٣٦]. وبالنسبة للمطالبين بالتطوير الذاتي في إدنبرة، تمثل جزءًا من جاذبية المحاضرات في اللغة الإنجليزية لا الأدب. وقد استمع المهتمون إلى سميث بوصفه شخصًا ساير الأسلوب الدارج وتخلى عن نبرته الاسكتلندية. وهذا أمر جيد بالنسبة لنا، وإلا لكانت قراءة (ثروة الأمم) مثل سماع أسوأ تلاوة لقصائد روبرت بيرنز(*).

(*) (١٧٥٩-١٧٩٦): شاعر اسكتلندي. (المترجم).

في عام ١٧٥١، حين كان سميث في الثامنة والعشرين، عين أستاذًا للمنطق في جامعة غلاسكو. وسرعان ما ترقى ليحتل منصب أستاذ الفلسفة الأخلاقية الأرفع مكانة. حظي سميث بالشعبية بين الطلاب. أرسل الدكتور ترونشان، طبيب فولتير، ابنه ليحضر دروس سميث، كما أرسل اللورد شيلبيرن، رئيس الوزراء فيما بعد، شقيقه الأصغر. وإلى جانب أمثال جيمس بوزويل، اجتذب سميث طلابًا حتى من روسيا. وسيصبح سميون إيفيموفيتش ديزنيتسكي، وإيفان أندريفيتش تريتياكوف، أستاذين في جامعة موسكو، حيث بشرا بأفكار آدم سميث. لكنها لم تنتشر.

في غلاسكو، عمل سميث أيضًا مديرًا ماليًا، وأمينًا لغرف الكليات، ونائبًا لرئيس الجامعة، ومسؤولاً عن اللقاءات والاجتماعات، وغير ذلك من المناصب الإدارية الغريبة. لكن وفقًا للروايات كلها، كان موثوقًا ومؤثرًا وفاعلاً. هنالك فارق مهم بين الشرود الذهني والعجز عن ترتيب الأفكار – بين السياسة الخارجية في بريطانيا وفرنسا مثلاً.

دعا سميث مدة عمله في جامعة غلاسكو (الحقبة التي امتدت ثلاثة عشر عامًا.. وأتذكرها بوصفها الأكثر فائدة ومن ثم الأسعد والأكرم والأشرف في حياتي)[٣٧]. كتب سميث ذلك في رسالة شكر فيها الجامعة على انتخابه رئيسًا لها عام ١٧٨٧، وماذا يمكن أن يقول إضافة إلى ذلك؟ هنالك أيضًا "ومن ثم" يجب أخذها بالاعتبار.

في عام ١٧٦٣، عرض على سميث تعليم دوق بوكليوتش (١٧ سنة)، ومرافقته في رحلة إلى فرنسا. وقبل الوظيفة دون تردد.

سُجل رأي سميث في مثل هذه الجولات القارية في (ثروة الأمم):

في إنجلترا، تنتشر كل يوم عادة إرسال الشباب إلى البلدان الأجنبية بعد استكمال الدراسة مباشرة.. وشبابنا، كما يقال، يعودون عمومًا إلى الوطن وقد تحسنت أحوالهم ومعارفهم بالسفر. والشاب الذي يسافر ولما يبلغ السابعة أو الثامنة عشرة، ثم يعود إلى الوطن في الحادية والعشرين، يعود وقد كبر ثلاث أو أربع سنين.. ومن الصعب جدًا في ذلك العمر ألا تشهد معارفه تحسنًا كبيرًا في ثلاث أو أربع سنوات.. من جوانب أخرى، يعود عمومًا أكثر زهوًا وانحلالًا، وأقل انضباطًا وقدرة على أي تطبيق جدي لما تعلمه في الدراسة أو التجارة، مقارنة بما يمكن أن يصبح عليه في هذا الوقت القصير لو بقي في الوطن ولم يسافر[٣٨].

يبدو أن الدوق كان شابًا لطيفًا رقيقًا. فقد نشأ ليغدو، وفقًا للطبعة الحادية عشرة من الموسوعة البريطانية (مشهورًا بسخائه وهباته)، خصوصًا إلى آدم سميث. ومن المأمول أن سميث كان يعمم (في الشاهد آنف الذكر)، أو كان على ثقة بأن الدوق لن يقرأ (ثروة الأمم).

أتت فرصة عمل سميث من عم الدوق (زوج أمه)، تشارلز تاونزند، الذي سيصبح وزيرًا للخزانة، ويشعل فتيل الثورة الأمريكية

بقانونه الشهير الذي فرض الرسوم على الشاي (وغيره من السلع) المصدر إلى أمريكا. لكن (ثروة الأمم) لم يكن قد ألف بعد. وتأثر تاونزند بكتاب سميث الأول.

أثر كتاب (نظرية العواطف الأخلاقية) في الفرنسيين أيضًا. واستقبل سميث في معظم الصالونات الأدبية والفكرية، على الرغم من رداءة لغته الفرنسية. وربما وصل كثير من الملاحظات إلى كيناي، وتيرغو، وهيلفيشس(*)، وديدرو(**)، وبالطبع مدام ريكوبوني. وإذا كانت رسالتها إلى غاريك صحيحة، يمكننا تخيل نوع الملاحظات التي ردت بها على سميث.

في رحلة إلى جنيف، التقى سميث بفولتير خمس أو ست مرات. وعلى ما يبدو روى فولتير لسميث كيف استعار صديقهما المشترك، دوق ريشليو، العجوز الفاسق، لوحة السفارة في فيينا ولم يرجعها. وعلق أمامه، كما فعل أمام غيره، قائلًا إن: (الإنجليز ليس لديهم سوى نوع واحد من الزبدة السائلة). لقاء بين أعظم عقلين في ذلك العصر: الجزء الثاني (بعد اللقاء مع صمويل جونسون). قال الأستاذ الفرنسي الذي تحمل ضوضاء موسيقى القرب إن سميث كان يجل ذكرى فولتير.

عند نهاية عام ١٧٦٦، عاد سميث إلى الوطن وعمل بصورة جدية في تأليف (ثروة الأمم). كانت بدايات الكتاب في تولوز أثناء

(*) كلود إدريان هيلفيشس (١٧١٥-١٧٧١): فيلسوف فرنسي. (المترجم).
(**) دينيس ديدرو (١٧١٣-١٧٨٤): فيلسوف، وناقد، وموسوعي فرنسي. (المترجم).

نوبة من نوبات السأم التي أصابت سميث - رد مناسب على رتابة الحياة في المدينة يظل أفضل من حرق السيارات في ضواحيها كما يحدث هذه الأيام. بقي سميث يكتب ويعيد الكتابة على مدى السنوات العشر اللاحقة.

كان لنشر (ثروة الأمم) تأثيرات فورية، لم تكن كلها بالضرورة إيجابية. فقد مثل الجزء الخامس فرصة اغتنمها أصحاب السلطة والنفوذ. وأي نصيحة قدمت إلى الحكومة، بغض النظر عن مدى معقوليتها أو ألمعيتها، أو مبدئيتها، أفرزت نتيجة واحدة: مزيد من السيطرة الحكومية. في عامي ١٧٧٧ و١٧٧٨، فرض رئيس الوزارة اللورد نورث أربع ضرائب جديدة، اقترحها آدم سميث كلها، دون قصد على الأرجح.

فرضت ضريبة على الخدم، الذين انخرطوا حسب تصنيف سميث في فئة (العمل غير الإنتاجي)، وضريبة على المساكن غير المأهولة، لأن سميث قال: (أجرة البيوت تدفع للاستخدام غير المنتج)[٣٩]. وثالثة على العقارات التي تباع في المزاد. وكان سميث قد ذكر لسوء الحظ أن بعض عمليات نقل الأملاك (إما عامة، أو غير قانونية، أو.. يتعذر إخفاؤها طويلًا)، و(لذلك فإن مثل هذه الصفقات يجب أن تخضع لضريبة مباشرة)[٤٠][٤١].

أفرز (ثروة الأمم) بعض التأثيرات الإيجابية أيضًا، منها العالم الحديث الحر برمته. فقد ساعدت حجج سميث على صياغة

معاهــدة باريس لإنهاء حرب الثورة الأمريكية. وكان إيرل شيلبيرن، الــذي أقام شقيقه الأصغــر في سكن سميث في جامعة غلاسكو، من أوائل الذين تبنوا أفــكاره. وزعم أنه اعتنق أفكار سميث أثناء رحلة قــام بها الاثنان من غلاسكو إلى لنــدن عام ١٧٦١. أصبح شيلبيرن رئيسًا للوزراء عــام ١٧٨٢. وفي السنة اللاحقة وقع معاهدة السلام مــع الولايــات المتحــدة. وزعــم أيضًا أن معاهــدة باريــس استمدت إلهامها مــن (مبدأ التجارة الحــرة العظيــم)، وأن (السلام مفيد بقدر ما يعترف بذلك المبدأ)[٤٢].

بعد أربع سنوات، سوف يستحضر بت الابن(*) مبدأ سميث ذاته لإصدار قانونه الموحد لإصلاح قوانين الرسوم الجمركية والضرائب في بريطانيا. لكن قرونًا من القوانين الميركانتيلية المتعجلة والسيطرة الحكوميــة الصارمــة على العائــدات أدت إلى تزايد هــذه القواعد التنظيمية إلى درجة الاضطرار إلى إصدار ٢٥٣٧ قرارًا لتقديم بنود ومــواد القانون الموحد أمــام البرلمان. حاول بــت أيضًا تطبيق فكرة سميث عــن الاتحاد الدستوري على أيرلنــدا. والنزاع الذي نتج عن المحاولة لا يزال مستمرًا.

هنالــك قصة تقول إن سميث ذهــب قبل وفاته ببضع سنين إلى بيت في لندن حيث تجمع عدد من الشخصيات المتميزة، منها هنري دونداســ، رئيس الهيئــة القضائيــة في اسكتلندا؛ ووليــام غرنفيل،

(*) وليام بت (١٧٥٩-١٨٠٦): سياسي ورئيس وزراء بريطاني (١٧٨٣-١٨٠١، ١٨٠٤-١٨٠٦). (المترجم).

كبير مستشاري التاج؛ والأسقف وليام ويلبرفورس؛ وبت؛ وهنري آدينغتون الذي سيخلف بت في رئاسة الوزارة. نهض الكل احترامًا حين دخل سميث.

قال لهم: (تفضلوا أيها السادة).

قال بت: (لا والله، لن نجلس قبلك، لأننا جميعًا من تلاميذك) [٤٣].

ربما حدث ذلك فعلًا. لكن نظرة السياسيين إلى آدم سميث ربما وجدت أبلغ معبر عنها في تشارلز جيمس فوكس، الخصم السياسي لبت المحافظ. كان فوكس، لا بت، هو الذي شارك سميث معتقداته (القريبة من آراء حزب الويغ، الذي تحول إلى حزب الأحرار في القرن التاسع عشر): الليبرالية السياسية، والتسامح الاجتماعي، ودعم سلطة البرلمان على حساب امتيازات الملك. كان فوكس واحدًا من أولئك المفكرين التقدميين الذين يعانون الفوضى والاضطراب في حياتهم الشخصية (من نوع تيد كنيدي). فقد أيد الثورة الفرنسية وعارض التدخل البريطاني في الحروب النابليونية. أبلغ المؤلف وكاتب المذكرات تشارلز بتلر بأنه لم يقرأ (ثروة الأمم)، لأن (هناك شيئًا لا أفهمه في هذه الموضوعات كلها؛ شيئًا واسعًا عريضًا لم أستطع الإحاطة به ولا أجد أحدًا استطاع) [٤٤].

لذلك كله، مثلما يستطيع أي طالب يدرس السياسة أن يتوقع، من الطبيعي أن يكون فوكس أول من استشهد بـ (ثروة الأمم) في البرلمان. ويشير الشاهد إلى صدق ما أبلغه إلى بتلر:

ثمة حكمة متضمنة في كتاب ممتاز حول ثروة الأمم.. لا يمكن الشك في صحتها. ذكر ذلك الكتاب أن الطريقة الوحيدة لتصبح غنيًّا هي إدارة الأمور بصورة تجعل الدخل يتجاوز النفقات. وتنطبق هذه الحكمة بالتساوي على الفرد والأمة(٤٥).

منح النظام السياسي آدم سميث تعويضًا مناسبًا، مثلما تكافئنا الأنظمة السياسية في حالات كثيرة على أخطائنا. في عام ١٨٧٧، عين سميث مفوضًا للجمارك الاسكتلندية، براتب كبير وعلاوات ومزايا مختلفة الأنواع، مثل ذلك الحارس الذي قلده على باب إدارة الجمارك.

وهكذا، كان سميث يجني المال من مبيعات الكتاب ومفوضية الجمارك، مع الجهود الرامية إلى إلغاء الرسوم الجمركية، والساعية لجبايتها. لم يعتقد أن ذلك كله مجرد تناقض يدعو للسخرية مثلما نفعل نحن. فهذا هو عمل الأسرة المتوارث. إذ كان والده مشرفًا ماليًّا على الجمارك في كيركالدي، وكذلك فعل ابن عم له، اسمه آدم سميث أيضًا، تسلم منصب المفتش العام لجمارك الموانئ الثانوية. هنالك أيضًا تاريخ من العجز وانعدام الكفاءة والاختلاس في مصلحة الجمارك البريطانية. ولا ريب في أن تعيين ذئب لمراقبة الحملان – حتى وإن كان منظِّرًا وشريفًا ونزيهًا – يظل أفضل من الممارسة المعتادة لوضع حمل لمراقبتها.

بعد سبع سنين من العمل مفوضًا، كتب سميث إلى وليام إيدن، أمين عام مجلس إدارة التجارة، يقول: (إن صافي الإيرادات من

الجمارك الاسكتلندية ارتفع أربع مرات على أقل تقدير مقارنة بالوضع قبل سبع أو ثماني سنوات.. ويسرني أن أعلن أنه سيشهد مزيدًا من الارتفاع)[٤٦].

في الوقت ذاته، فإن من المستبعد أن يكون سميث مغاليًا في التضييق والصرامة على طاولة التفتيش الجمركي. فقد فكر في رسوم الاستيراد المرتفعة بوصفها نوعًا من الشراك المفخخة، وكتب في (ثروة الأمم) يقول: (خلافًا لمبادئ العدالة العادية كلها، يخلق القانون الإغراء أولًا، ثم يعاقب أولئك الذين استسلموا له)[٤٧]. وعبر عن قلقه من أن التهريب لا يخرب الاقتصاد، بل (يدمر المهرب. فمع أنه الملام على انتهاك قوانين بلاده، إلا أنه كثيرًا ما يكون عاجزًا عن انتهاك قوانين العدالة الطبيعية، وسيكون من النواحي كلها مواطنًا صالحًا وممتازًا لولا أن قوانين بلده جعلت التهريب جريمة لم تكن الطبيعة تعده كذلك)[٤٨]. بل بلغ حد إعلان أن (الادعاء بالتردد في شراء البضائع المهربة لدوافع أخلاقية.. يعد نفاقًا ورياءً، وبدلًا من اكتساب الفضل فإنه يفضح المنافق المرائي، ويثبت أنه أكثر خداعًا من معظم جيرانه)[٤٩]. ومن المؤكد أن السيدات العجائز في الحافلات السياحية التي تعبر الحدود الكندية عند شلالات نياغارا وحقائبهن متخمة بالعقاقير الكندية، سيلاقين معاملة طيبة من آدم سميث.

مثلما فعل تمامًا مع والدته وابنة خالته العانس اللتين نقلهما إلى منزل فخم في إدنبرة. هناك، عاش اثني عشر عامًا من حياته، في

نشاط وتواصل اجتماعي مع الناس، وفقًا للبرنامج الذي أوصى به لعمال انجلترا واسكتلندا في الجزء الأول من (ثروة الأمم):

(إن الجهد العظيم، الذهني أو الجسمي، المستمر عدة أيام، تتبعه بصورة طبيعية رغبة في الراحة والاسترخاء.. نداء الطبيعة، الذي يتطلب التحرر من الانشغال والعمل، بطريقة سهلة حينًا، لكن بالمتع الحسية والتسلية واللهو أحيانًا)(٥٠).

أسلم سميث الروح في السابع عشر من يوليو ١٧٩٠، بعد أن تدهور وضعه الصحي. في مراجعاته الأخيرة لـ (نظرية العواطف الأخلاقية)، أضاف قرابة عشرين فقرة، معظمها يستحسن موقف الرواقيين(*) تجاه الموت: (سر قدمًا دون تشكٍّ أو تذمر، هادئًا، راضيًا، قانعًا، مستمتعًا، واحمد الله، الذي فتح بآلائه اللامتناهية مرفأ الموت الآمن الهادئ، الجاهز دومًا لاستقبالنا من البحر العاصف المتلاطم للحياة البشرية)(٥١). هزل جسمه ونحل وضعف، لكن في يوم الأحد السابق على وفاته، استضاف أصدقاءه على العشاء الأسبوعي المعتاد. وكانت آخر كلماته المسجلة: (أعتقد أن علينا رفع هذه الجلسة ونقل اللقاء إلى مكان آخر)(٥٢).

(*) أتباع مذهب فلسفي أسسه زينو (٣٠٨ ق.م) أكد أن الوصول إلى السعادة لا يتم إلا بقبول تقلبات الدهر وعاديات الزمن، وأن الحكيم لا يتأثر بها. (المترجم).